الاسلام والغرب

ادوار سعيد

في محاولة لابراز المصادر البديلة للطاقة وترسيخ ذلك عند الأمريكيين ، لجأت شركة أديسون المتحدة ـ نيويورك ، (ConEd) ، في صيف عام ١٩٨٠ ، الى دعاية تلفزيونية مثيرة . فقد عرضت لقطات حية لعدد من الشخصيات المرموقة التي يمكن التعرف اليها على الفور ، من أعضاء منظمة الدول المصدرة للنفط (الأوبك) ـ من أمثال اليماني والقذافي وشخصيات عربية اخرى اقل شهرة ترتدي العباءات ـ تتداخل بينها صور ولقطات حية ايضا لشخصيات اخرى ترتبط في ذهن المشاهد بالنفط والاسلام : الخميني وعرفات وحافظ الاسد .

ولم يذكر اسم أي شخصية من الذين عرضت صورهم ، غير ان الاعلان يخبرنا ، منذرا بالشؤم ، ان « هؤلاء الرجال يسيطرون » على مصادر النفط بالنسبة لامريكا . ولا يورد الصوت الرزين الجاد المرافق للصور ، اي اشارة الى ماهية « هؤلاء الرجال » او مراكزهم او الجهة التي اتوا منها ، مما يترك في النفوس انطباعا بان هذه الزمرة « الرجالية » من الاشرار قد وضعت الأمريكيين جميعا في قبضة ساديين لاضابط لهم . ويكفي ان يظهر « هؤلاء الرجال » بالصورة التي ظهروا عليها في الصحف والتلفزيون حتى يتولد في نفوس المشاهدين الامريكيين مزيج من مشاعر الغضب والخوف والنفور . ولقد أثارت شركة اديسون المتحدة هذا المزيج من العواطف بسرعة فائقة واستغلته لاسباب تجارية داخلية ، وكانت في ذلك منسجمة مع ما اوصى به ، منذ عام ، ستيورات ايزنستات ، مستشار الرئيس كارتر للسياسة الداخلية . فقد حث الرئيس على « اتخاذ خطوات حازمة اذ [يجب] ان نعبىء الامة حول ازمة حقيقية وعدو واضح هو الاوبك » .

ويطرح الاعلان التجاري الذي عرضته شركة اديسون المتحدة قضيتين تشكلان معا موضوع هذا الكتاب . اولاهما هي الاسلام دون ريب ، بل صورة الاسلام في الغرب عموما ، وفي الولايات المتحدة بشكل خاص . والقضية الثانية هي استخدام تلك الصورة في الغرب ، وخاصة في الولايات المتحدة . وسنتبين ان هاتين القضيتين مترابطتان معا بطرق من شأنها ان تكشف النقاب ، في نهاية المطاف ، عن الغرب والولايات المتحدة كما تكشفه عن الاسلام ـ وان يكن الامر اقل اثارة وواقعية بالنسبة للاسلام . ولعل من المناسب ان نلقي نظرة على تاريخ العلاقات بين الاسلام والغرب المسيحي قبل ان نباشر تفحص المرحلة الراهنة .

---

* الفصل الاول من كتاب ادوار سعيد : « الاسلام في الاعلام » ، الذي يصدر قريبا باللغة الانكليزية .

فمنذ نهاية القرن الثامن عشر ، على اقل تقدير ، وحتى يومنا هذا ، سيطر على ردود الفعل الغربية الحديثة نحو الاسلام نوع من التفكير المبسط في جوهره ما زال بامكاننا ان نسميه الاستشراق . وقد سبق لي ان ذكرت في غير هذا المقام ، ان الاساس العام للفكر الاستشراقي يرتكز الى جغرافية خيالية ، ولكنها ثنائية خطيرة ، تقسم العالم شطرين غير متساويين ، اكبرهما ، وهو الشطر « المختلف » يدعى الشرق ، ويدعى الاخر الغرب ، وهو الشطر الذي يسمى ايضا عالمنا . ويشيع مثل هذا التقسيم دوما حين تفكر حضارة ما او مجتمع ما بحضارة اخرى مختلفة او مجتمع اخر مختلف . ولكن اللافت للنظر في حالتنا هذه ان الشرق ، حتى حين اعتبر جزءا متخلفا من العالم ، قد اسبغ عليه دوما حجم اكبر وقدرة كامنة اكبر من الغرب (وهذه القدرة ، عادة ، تخريبية) . وانطلاقا من الموقف الذي نظر الى الاسلام ، دائما ، بصفته ينتمي الى الشرق فقد كان قدر الاسلام الخاص ، في نطاق النظام الاستشراقي العام ، ان ينظر اليه ، في المقام الاول ، كانه كتلة واحدة صلدة لاتمايز او تعدد فيها * ، ثم ان ينظر اليه بنوع خاص جدا من العداء والخوف .

وغير خاف ان الكثير من الدواعي الدينية والنفسية والسياسية تكمن وراء هذا الموقف . ولكنها جميعا تنبثق من الشعور بان الاسلام لايمثل منافسا رهيبا فحسب ، بالنسبة الى الغرب ، بل انه يمثل كذلك تحديا متأخرا للمسيحية .

وساد الاعتقاد ، ابان معظم القرون الوسطى وفي القسم الاول من عصر النهضة في اوروبة ، بان الاسلام دين شيطاني رجيم سماته النفاق والتجديف والغموض . ولم يغير من الامر شيئا ان المسلمين يعتبرون محمدا نبيا لا الها : فالمهم ، بالنسبة للمسيحيين ، هو ان محمدا نبي كذاب ، زارع شقاق وداعية تفرقة ، شهواني ، منافق ، وعميل للشيطان . ولم يكن هذا الموقف من محمد موقفا عقائديا خالصا . فالاحداث الواقعية في العالم الواقعي جعلت من الاسلام قوة سياسية ذات شأن لايستهان به . فقد هددت جحافل الجيوش الاسلامية واساطيلها اوروبة ، على مدى مئات السنين ، فدكت ثغورها واستعمرت مناطقها . فكأنما قد بزغ في الشرق مذهب جديد من المسيحية اكثر شبابا وحيوية وفحولة مما هو في الغرب ؛ وتسلح هذا المذهب بعلوم الاغريق الاقدمين ، واستمد طاقته الحيوية الفاعلة من عقيدة بسيطة اتصفت بالبسالة والاقدام والجهاد ، وباشر يعمل في المسيحية هدما وتخريبا . وقد استمر الخوف من « المحمدية » حتى بعد ان دخل عالم الاسلام مرحلة الانحطاط ودخلت اوروبة مرحلة النهضة . فعالم الاسلام اقرب الى اوروبة من كل ما عداه من الاديان غير المسيحية ، وقد اثار قرب الجوار هذا ذكريات الاعتداء والاحتلال والمعارك الاسلامية ضد اوروبة ، كما انعش في الذاكرة ، دوما ، قوة الاسلام الكامنة المؤهلة لازعاج الغرب المرة تلو المرة . وقد امكن اعتبار غيره من الحضارات الشرقية العظيمة ــ نذكر منها الهند والصين ــ مغلوبة على امرها وبعيدة ، ومن هنا لاتشكل مصدرا للقلق الدائم . ولكن الاسلام يتفرد في انه ، على ما يبدو ، لم يخضع ابدا للغرب خضوعا كليا . ومن هنا حين بدا ــ منذ الزيادات الهائلة في اسعار النفط في اوائل السبعينات ــ كأن العالم الاسلامي على وشك ان يعيد سابق انتصاراته ، اخذ الغرب كله يرتعد فرقا .

ثم كان ان احتلت ايران مركز الصدارة سنة ١٩٧٨ ، مما ولد في نفوس الامريكيين شعورا متزايدا بالقلق والانفعال . والواقع ان هذا الاهتمام الامريكي الكثيف الذي حظيت به ايران لم ينله غير نفر قليل من الشعوب التي تبعد عن الولايات المتحدة بعدا شاسعا كايران ، وتختلف عنها الاختلاف الكبير نفسه . ولم يسبق للامريكيين اطلاقا ان ظهروا عاجزين ومشلولين ولا يملكون القدرة

---

* Monolith.

لايقاف مسلسل الاحداث الدرامية الذي تتالى حدثا وراء حدث ، كما بدوا إبان هذه الفترة . وهم ، في كل معاناتهم تلك ، لم يتمكنوا ابدا من نسيان ايران ، اذ هي البلد الذي اقتحم عليهم حياتهم ، على صعد متعددة متنوعة ، اقتحاما متحديا جسورا . وقد كانت ايران موردا رئيسيا للنفط ابان فترة ندرت فيها الطاقة . كما انها تقع في منطقة من العالم تعتبر ، اجمالا ، غير مستقرة وذات اهمية استراتيجية حيوية . وكانت حليفا مهما ، ثم فقدت نظامها الامبراطوري ، وجيشها ، وقيمتها في الحسابات الامريكية الكونية ، خلال سنة من الانتفاضة الثورية العارمة التي لم يسبق لها مثيل على هذه الصورة الشاملة منذ تشرين الاول / اكتوبر ١٩١٧ . كان هناك نظام جديد يدعو نفسه اسلاميا ، ويبدو نظاما شعبيا ومعاديا للامبريالية ، يعاني مخاض الولادة . وسيطرت صورة آية الله الخميني وحضوره على وسائل الاعلام التي اخفقت في حل لغزه وفهمه ، ما عدا كونه صلبا غير مرن وقويا وغاضبا اشد الغضب على الولايات المتحدة . واخيرا ، نتج عن دخول الشاه السابق الى الولايات المتحدة ، ان احتلت مجموعة من الطلاب سفارة الولايات المتحدة في طهران في الرابع من تشرين الثاني / نوفمبر ، واحتجزت العديد من الامريكيين رهائن . وان هذه الازمة ما تزال مستمرة عند كتابتي هذه السطور .

لم تنشأ ردود الفعل على ما جرى في ايران من عدم . بل ان هناك في وعي الجمهور الحضاري الاعلى ذلك الموقف القديم من الاسلام والعرب والشرق عموما الذي اسميه الاستشراق . فصورة الاسلام هي هي واحدة ثابتة لاتتغير حيثما نظرت ومهما تكن المادة التي تعرضها : يستوي في ذلك الروايات الحديثة التي أطراها النقاد ، كمثل رواية ف.س. نيبول **انعطاف في النهر** * ورواية جون ابدايك **الانقلاب** ** ؛ والكتب المدرسية المقررة في مادة التاريخ ؛ والاشرطة المهزلية والمسلسلات التلفزيونية ، والأفلام السينمائية والافلام الفكاهية القصيرة . وتنبثق هذه الصورة الموحدة وتستمد مادتها من المفهوم القديم نفسه للاسلام ؛ ولذلك يكثر تصوير المسلمين كاريكاتوريا كموردي نفط ، وارهابيين ، وغوغاء عطشى للدماء ــ والصورة الاخيرة اضيفت حديثا . ونجد ، في المقابل ، ان الحيز المتاح للتعاطف مع « الاسلام » هو حيز ضيق جدا ، سواء في ذلك ما تتيحه الحضارة بشكل عام او في نطاق البحث والنقاش حول غير الغربيين بشكل خاص . والمجال يضيق بالحديث او حتى مجرد التفكير المتعاطف مع الاسلام ، ناهيك عن محاولة عرضه ، او عرض اي شأن اسلامي عرضا متعاطفا . ولو طلبنا تسمية كاتب اسلامي **حديث** مثلا ، فمن المرجح ان يورد اغلب الناس اسم جبران خليل جبران (الذي لم يكن اسلاميا) . اما الخبراء الاكاديميون المتخصصون في الاسلام فقد تناولوا ، في الغالب الاعم ، هذا الدين وحضاراته المتنوعة ضمن اطار ايديولوجي اصطنعوه ، او هو اطار مقرر ومحدد حضاريا ، اطار مفعم بالانفعالات العاطفية والتحيز الدفاعي ، بل بالاشمئزاز احيانا . وقد جعلت هذه الخلفية ــ او هذا الاطار ــ فهم الاسلام امرا عسير المنال. ولو اجرينا تقويما للدراسات المتعمقة والمقابلات التي قامت بها وسائل الاعلام حول الثورة الايرانية في ربيع عام ١٩٧٩ ، لما تبينا غير توجه او ميل ضعيف جدا للقبول بالثورة نفسها على اساس انها اكبر من مجرد هزيمة للولايات المتحدة (وهي كذلك حقا ، انما بمعنى دقيق محدد) او انتصار الظلمة على النور .

ويلفت اهتمامنا الدور الذي يلعبه ف.س. نيبول فيساعدنا في توضيح هذا الاتجاه العدائي العام نحو الاسلام . فقد تحدث ، في مقابلة حديثة نشرت في النيوزويك انترناشيونال (١٨ آب/اغسطس ، ١٩٨٠) ، عن كتاب يقوم بتأليفه عن الاسلام ، ثم ادلى بتصريحه « ان المبادىء الاساسية في الاسلام خلو من المضمون الفكري ، ولذلك فلا بد ان ينهار » . ولم يفصح عن ماهية المبادىء الاساسية في

---

* V.S. Naipul, ABend in the River.
** John Updike, The Coup.

الاسلام او يحدد ما يعنيه بها ، كما لم يفصح عن نوع المضمون الفكري الذي يرمي اليه . غير اننا لانشك انه قصد ايران ، كما قصد ايضا ـ بعبارات غامضة مماثلة ـ كافة مظاهر الموجة الاسلامية المناهضة للامبريالية التي اجتاحت العالم الثالث بعد الحرب ؛ تلك الموجة التي يكن لها نيبول شعورا خاصا من النفور العميق . وفي روايتيه الاخيرتين ، **مقاتلو العصابات او فدائيون** ، **وانعطاف في النهر** يطرح نيبول قضية الاسلام ؛ ويشكل بعضا من الاتهام العام الذي يتهم به نيبول العالم الثالث (وهو اتهام رائج مستحب عند القراء الغربيين الليبراليين) ما يكدسه جنبا الى جنب من رذائل وفساد حفنة من الحكام غريبي الاطوار والامزجة ، ونهاية الاستعمار الاوروبي ، والجهود التي تلت التخلص من الاستعمار وبذلت لاعادة انشاء وتعمير المجتمعات المحلية ، معتبرا اياها جميعا امثلة تدل على الاخفاق الفكري الكلي في افريقيا وآسيا . ويلعب « الاسلام » دورا رئيسيا ، في رأي نيبول ، سواء كان المقصود بذلك الالقاب الاسلامية التي يستخدمها رجال العصابات الانفعاليون من الهنود الغربيين ، او في بقايا تجارة الرقيق الافريقية . فالاسلام يشمل اذن ، بالنسبة لنيبول وقرائه ، انكر ما يبغضون من منطلق العقل الغربي المتمدن

فكأن التمييز بين العاطفة الدينية ، والنضال في سبيل قضية عادلة ، والضعف الانساني العادي ، والتنافس السياسي ، وبين تاريخ الرجال والنساء والمجتمعات **محكوما** عليه باعتباره تاريخا للرجال والنساء والمجتمعات لم يكن ممكنا حين يعالج الروائيون الصحافيون وصانعو السياسة و« الخبراء » موضوع « الاسلام » ، او بالحري الاسلام الفاعل الان في ايران وغيرها من بلدان العالم الاسلامي . فكأن « الاسلام » يبتلع جميع مظاهر العالم المسلم المتنوعة ، فيحيلها كلها الى جوهر خاص شرير عديم التفكير . ولا يمكن ان ينجم نتيجة لذلك تحليل وتفهم وفهم ، بل نجد بدلا منها ، في الغالب الأعم ، ادنى اشكال التقسيم الى نحن ـ ضد ـ هم واشدها فجاجة وقصورا . اما كل ما يقوله الايرانيون او المسلمون عن التزامهم بالعدالة ، وتاريخ معاناتهم للقمع ، ورؤياهم لمجتمعاتهم ، فكأنه خارج نطاق الموضوع ولا علاقة له به ؛ فصرفت الولايات المتحدة النظر عنه واستعاضت بالاهتمام فيما تفعله « الثورة الاسلامية » الان : كم يبلغ عدد الذين اعدمهم الخمينيون ، وكم يبلغ عدد الانتهاكات العنيفة المستهجنة التي امر آية الله بها ، باسم الاسلام . وبديهي ان احدا لم يفكر في اقامة التعادل بين منبجة جونستاون او الاثارة المتأججة المدمرة التي افرزتها الامسية الموسيقية في سينسيناتي ، وبين المسيحية او الحضارة الغربية او الامريكية بصورة عامة ، فمثل هذا التعادل يقتصر على « الاسلام » وحده .

لماذا بدا هذا المدى المتسع الشامل من الاحداث السياسية والحضارية والاجتماعية ، بل والاقتصادية ايضا ، ممكن الاختصار بمثل هذه الطريقة البافلوفية الى « الاسلام » ؟ اي شيء في « الاسلام » أثار مثل هذه الاستجابة السريعة غير المنضبطة ؟ ما وجه الخلاف الذي يراه الغربيون بين « الاسلام » وبقية دول العالم الثالث او الاتحاد السوفياتي ؟ هذه الاسئلة ابعد من ان تكون اسئلة بسيطة ، ومن هنا نرى ان نجيب عن كل منها بمفرده مع ايراد الكثير من التحديد والتخصيص والتمييز .

ان الاسماء ـ التعميمات (labels) التي تطلق على حقائق متسعة معقدة ، غامضة اشد الغموض ، وان كانت ضرورية لايستغنى عنها في الوقت نفسه . فلو كان صحيحا ان « الاسلام » اسم ـ تعميم غير دقيق ومثقل بالايديولوجيا ، فمن الصحيح ايضا ان « الغرب » و« المسيحية » يواجهان المأزق نفسه . غير انه ليس من الميسور ان نتجنب هذه الاسماء ـ التعميمات ، لان المسلمين يتكلمون عن الاسلام ، والمسيحيين عن المسيحية ، والغربيين عن الغرب ؛ ويتكلم هؤلاء جميعا عن كل

ما عداهم ، بطرق تبدو مقنعة وصائبة . وبدلا من ان نحاول اقتراح وسائل للتحاليل على هذه الاسماء ـ التعميمات ، اعتقد ان من الاجدى لنا ان نقر ، اساسا ، بوجودها ، وبانها تستخدم ، منذ عهد بعيد ، كجزء اساسي متكامل في التاريخ الحضاري لاكتصنيفات موضوعية . وسوف اتحدث عنها ، بعد قليل في هذا الفصل ، بوصفها شروحا وتفاسير من انتاج ما سوف اسميه بمجتمعات الشروح او التفاسير لخدمة اغراضها . ولذلك يجب علينا ان نتذكر ان « الاسلام » و« الغرب » ، وحتى « المسيحية » ، هي اسماء ـ تعميمات تؤدي وظيفتين مختلفتين على الاقل ، وتسفر عن معنيين على الاقل ، كلما استخدمناها . فهي تؤدي ، اولا ، وظيفة تعريفية بسيطة ، كأن نقول ، الخميني مسلم ، والبابا يوحنا بولس مسيحي . فمثل هذه الجمل تخبرنا ، كحد ادنى ، ما هو شيء ما مقارنا مع جميع الاشياء الاخرى . وفي هذا المستوى ، يمكننا التمييز بين التفاح والبرتقال (كما قد نميز بين المسلم والمسيحي) الى الحد الذي يعلمنا انهما نوعان مختلفان من الفاكهة ، ينموان على اشجار مختلفة ، وما شاكل ذلك .

اما الوظيفة الثانية التي تؤديها الاسماء ـ التعميمات فهي افراز معنى اشد تعقيدا نتيجة لذلك . فالحديث عن « الاسلام » في الغرب اليوم يحمل في طياته الكثير من المعاني المنكرة غير المستحبة التي سبقت الاشارة اليها . وكما سبق لي ان قلت ايضا ، من المستبعد ان يدل « الاسلام » على اي معنى يعرفه المرء معرفة مباشرة او موضوعية . وينطبق الامر نفسه على استخدامنا لـ « الغرب » . فكم يبلغ عدد الذين يستخدمون الاسماء ـ التعميمات ، غاضبين او جازمين ، وهم يمسكون بزمام المعرفة الحقة بكافة مناحي التقاليد والاعراف الغربية ، او التشريع الاسلامي ، او اللغات الحية في العالم الاسلامي ؟ الجواب ، طبعا ، نفر قليل . ولكن ذلك لايمنع الناس من تصنيف الاسلام والغرب بمنتهى الثقة ، او من الاعتقاد انهم يعرفون تماما عما يتكلمون .

ولهذا السبب اذن علينا ان ننظر الى الاسماء ـ التعميمات بعين جدية مبالية . فبالنسبة لمسلم يتحدث عن « الغرب » او لأمريكي يتحدث عن « الاسلام » ، تستند هذه الأسماء ـ التعميمات الضخمة الى تاريخ طويل تام ، من شأنه ان يقويها ويضعفها في آن واحد . فقد استطاعت هذه الاسماء ـ التعميمات المفعمة بالايديولوجيا والعواطف المتأججة ان تجتاز تجارب عديدة وتتخطاها وان تتكيف مع ما يستجد من احداث واخبار وحقائق . وقد اكتسب « الاسلام » و« الغرب » حاليا ، كما سبق ان اشرت ، زخما حيويا جديدا في كل مكان . ويجب ان ننتبه فورا الى ان الغرب ، لا المسيحية ، هو دائما في موضع التنافس والعداء ضد الاسلام . لماذا ؟ يكمن السبب في افتراض ان « الغرب » اكبر من المسيحية دينه الرئيس ، وقد تجاوز مرحلتها . اما عالم الاسلام ـ على ما فيه من غنى وتعدد وتنوع في تاريخه ومجتمعاته ولغاته ـ فيقول الافتراض انه ما يزال غارقا في الدين والبدائية والتخلف . فنحن نجد اذن ان الغرب حديث واكبر من مجموع اجزائه ومليء بالتناقضات التي تغذيه وتغنيه ، ولكنه يبقى دائما « غربيا » في هويته الحضارية ؛ ونجد ، من ناحية اخرى ، ان عالم الاسلام لايعدو كونه « الاسلام » الذي يمكن اختصاره الى عدد ضئيل من الخصائص غير المتغيرة ، رغم مظاهر التناقض والتجارب المتنوعة التي قد تبدو ، حين ننظر اليها نظرة سطحية ، غنية متعددة كما هي عليه الحال في الغرب .

وتزودنا مقالة نشرت في قسم « مراجعة اخبار الاسبوع » في الصنداي نيويورك تايمز ، ١٤ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٠ ، بنموذج حديث يوضح ما أقصد . وكاتب هذه المقالة هو جون كفنر ، مراسل **التايمز** القدير في بيروت ، اما موضوعها فمدى التغلغل السوفياتي في العالم الاسلامي . وتتضح فكرة

كفنر بجلاء من عنوان مقالته (« ماركس والمسجد اقل انسجاما من اي وقت مضى* ») . ولكن الجدير بالملاحظة هو استخدام كفنر للاسلام ليقيم ترابطا بين تجريد وواقع شديد التعقيد ــ وهو ما كان سيعتبر ، في اية حالة اخرى ، ترابطا مباشرا غير مقبول ولا مبرر او مثبت . وحتى لو سلمنا بان الاسلام ، بخلاف غيره من الاديان ، هو نظام كلي شامل لايفصل بين الكنيسة والدولة او بين الدين والحياة اليومية ، يبرز في المقالة جانب لانظير له ــ وقد يكون مقصودا متعمدا ــ في شدة الجهل والتجهيل ــ وان يكن تقليديا شائعا ــ في جمل على غرار ما يلي :

« ان السبب في تراجع وضمور تاثير موسكو بسيط للغاية : ماركس والمسجد لا ينسجمان . [هل نفترض اذن ان ماركس ينسجم والكنيسة والهيكل ؟ حتما وبالتاكيد] .

فبالنسبة للعقل الغربي [والواضح انه بيت القصيد] الذي قد تكيف منذ حركة الاصلاح مع التطورات التاريخية والفكرية التي انقصت دور الدين باطراد ، يصعب ادراك النفوذ الذي يتمتع الاسلام به [الذي نفترض انه لم يتكيف مسايرا التاريخ او الفكر] . على انه كان ، على مدى قرون طويلة ، القوة المركزية في حياة هذه المنطقة ، ويبدو ان قوته ونفوذه ، في المرحلة الحاضرة على اقل تقدير ، في انتعاش وتصاعد .

ولا فصل في الاسلام بين الكنيسة والدولة . ذلك انه نظام كلي شامل للعقيدة والعمل على حد سواء ، يتضمن قوانين صارمة تشرع للحياة اليومية بالاضافة الى حافز تبشيري يقضي بقتال الكفار او هدايتهم . وعليه يرى المتدينون ، وخاصة العلماء والمشايخ ، والجماهير كذلك [بكلمة اخرى لايستثنى احد] ، في الماركسية ذات المفهوم الدنيوي الخالص للانسان ، مادة دخيلة مستهجنة ، بل هرطقة » .

ان كفنر يتجاهل التاريخ بمنتهى البساطة ، كما يتجاهل تعقيدات كثيرة من نمط السلسلة المهمة من المتوازيات بين الماركسية والاسلام (التي درسها رودنسون في كتاب محاولا ان يشرح لماذا شقت الماركسية ، في الواقع ، عدة طرق في المجتمعات الاسلامية عبر السنين) . ليس ذلك فحسب ، بل انه يبني مقولته على مقارنة خفية يعقدها بين « الاسلام » والغرب الذي يتفوق تفوقا بالغا ، بتنوعه وتعدده الذي لايمكن حصره وتحديده ، على الاسلام البسيط ، والاحادي غير المتغير ، والكلي الشامل . وما يلفت انتباهنا هو ان بامكان كفنر ان يقول ما يقول دون اي محذور او خطر او خوف من ان يبدو مخطئا او سخيفا .

الاسلام ضد الغرب : هذا هو الاساس الذي ينبثق منه العديد من التنوعات المذهلة لخصوبتها . ومن الافتراضات التي يتضمنها : اوروبة ضد الاسلام ، وامريكا ضد الاسلام . ولكن التجارب الملموسة المختلفة مع الغرب باكمله تلعب دورا مهما ايضا . ويجب ان نقيم تمييزا على غاية الاهمية بين الوعي الامريكي والوعي الاوروبي للاسلام . فقد امتلكت كل من فرنسة وانجلتره مثلا ، حتى عهد قريب ، امبراطوريات مسلمة شاسعة . ونجد في هاتين الدولتين ، كما هي الحال ــ وان يكن اقل شأنا ــ في ايطاليا وهولندة اللتين كانت لهما مستعمرات مسلمة ايضا ، تقليدا طويلا ممتدا من التجربة المباشرة مع العالم الاسلامي . وينعكس ذلك في نظام اكاديمي اوروبي مرموق هو الاستشراق . وقد قام الاستشراق بالتأكيد في البلاد التي كانت لها مستعمرات مسلمة كما قام في البلاد التي رغبت في امتلاك مستعمرات ، او التي كانت مجاورة لبلاد مسلمة او التي كانت هي نفسها دولا مسلمة في يوم من الايام (المانية واسبانية وروسيا قبل الثورة) . ويضم الاتحاد السوفياتي اليوم بين سكانه حوالي خمسين (٥٠) مليون مسلم ، كما انه يحتل عسكريا ، منذ اواخر سنة ١٩٧٩ ، دولة

---

* John Kifner.« Marx and Mosqe are less Compatible than Ever ».

افغانستان المسلمة . وبالمقارنة ، لاينطبق اي من الامور التي ذكرنا على الولايات المتحدة ، مع اقرارنا بانه لم يسبق لمثل هذا العدد الكبير من الامريكيين ان كتبوا او فكروا او تكلموا حول الاسلام .

ان غياب اي ماض استعماري لامريكا او اي اهتمام طويل العهد بالاسلام من جانبها يجعل الحوار الحالي اكثر تميزا واكثر تجريدا واقل جدة واصالة . فالقليل جدا من الامريكيين ، بالمقارنة مع غيرهم ، اقاموا اية علاقة فعلية تذكر مع مسلم حقيقي . اما في فرنسة ، على سبيل المقارنة ، فان الدين الثاني للدولة ــ من الناحية العددية ــ هو الاسلام ، وقد لاتكون نتيجة ذلك ان يصبح الاسلام اكثر شعبية ، انما يصبح بالتأكيد اقرب الى الفهم والمعرفة . كان انفجار الاهتمام الاوروبي الحديث بالاسلام جزءا مما سمي بـ « الانبعاث الشرقي » ، وهي مرحلة في اواخر القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر حين اكتشف الباحثون الفرنسيون والانجليز « الشرق » من جديد ــ الهند والصين واليابان ومصر وبلاد ما بين النهرين والاراضي المقدسة . وقد نظر الى الاسلام ، سواء عن حق او عن باطل ، باعتباره جزءا من الشرق بشاطره غموضه واسراره وغرابته وفساده وقوته الكامنة . صحيح ، كما سبق ان قلت ، ان الاسلام كان يشكل تهديدا عسكريا مباشرا لاوروبة لمئات من السنين الغابرة ، وصحيح ايضا ان الاسلام شكل ، ابان العصور الوسطى واوائل عصر النهضة (المبكرة) ، مأزقا للمفكرين المسيحيين الذين استمروا ، على مدى مئات السنين ، يرون فيه وفي نبيه محمد أعلى أشكال الردة والنفاق . ولكن الاسلام كان موجودا على الاقل ، بالنسبة للعديد من الاوروبيين ، بوصفه نوعا من التحدي الديني ــ الحضاري الدائم ، وان لم يمنع ذلك الامبريالية الاوروبية من اقامة مؤسساتها على الاراضي الاسلامية . ومهما يكن قدر العداء بين اوروبة والاسلام ، فقد كان هناك ايضا خبرة وتجارب مباشرة ، نلمسها عند شعراء وباحثين من امثال غوته ونرفال وريتشارد بيرتون وفلوبير ولوي ماسينيون ، تميز ابداعهم بالخيال والرهافة .

غير ان الاسلام لم يلق الترحاب في اوروبة ابدا ، بالرغم من وجود هذه الشخصيات ومن شاكلها . فمعظم فلاسفة التاريخ المرموقين ، من هيجل حتى شبنغلر ، نظروا في الاسلام بدون كثير من الحماسة . وقد ناقش البرت حوراني في مقالة موضوعية نيرة عنوانها « الاسلام وفلسفة التاريخ » هذا التحقير المستمر المذهل للاسلام كمنظومة من منظومات الايمان . وباستثناء بعض الاهتمام العابر بصوفي غريب الاطوار كاتب او ولي فان التقاليع الاوروبية الباحثة عن « حكمة الشرق » نادرا ما شملت الحكماء والشعراء الاسلاميين . ان عمر الخيام وهرون الرشيد والسندباد وعلاء الدين وحاجي بابا وشهرزاد وصلاح الدين يشكلون ، في الأرجح الاعم ، القائمة الكاملة لكل الشخصيات الاسلامية التي يعرفها الاوروبيون المتعلمون في العصر الحديث . ولم يستطع حتى كارلايل ان يجعل الرسول مقبولا على نطاق واسع ، واما بالنسبة لمحتوى الدين الذي نشره محمد فقد بدا للاوروبيين ، منذ عهد بعيد ، انه غير مقبول اساسا انطلاقا من الخلفية المسيحية ، وان كان مثيرا للاهتمام لهذا السبب عينه . وحين تصاعدت المشاعر القومية الاسلامية في آسيا وافريقيا ، مع اقتراب نهاية القرن التاسع عشر ، ساد الرأي القائل ان المستعمرات المسلمة لابد ان تظل تحت الوصاية الاوروبية لانها كانت تدر الربح من جهة ولأنها كانت متخلفة وبحاجة الى الضبط والنظام الغربيين ايضا . ومهما يكن الامر ، وبالرغم من العنصرية والعدوان المتكررين الموجهين ضد العالم الاسلامي ، نجد ان الاوروبيين قد عبروا تعبيرا حيويا ناشطا عما عناه الاسلام لهم . ومن هنا نشأ كل ما يمثل الاسلام ــ في البحث والفن والادب والموسيقى والحوار والمناقشات العامة ــ في الحضارة الاوروبية كافة ، منذ نهاية القرن الثامن عشر حتى يومنا هذا .

ولا نجد في الخبرة الامريكية مع الاسلام الا النزر الضئيل من هذه التجارب الملموسة البينة .

فقد كانت الاتصالات الأمريكية بالاسلام محدودة جدا ، في القرن التاسع عشر ؛ ويتبادر الى ذهننا بعض الرحالة من امثال مارك توين وهيرمان ملفيل ، او الارساليات التبشيرية ، المتناثرة هنا وهناك او الحملات العسكرية الى شمالي افريقيا التي لم تعمر طويلا . اما على الصعيد الحضاري فلم يحظ الاسلام بموقع بين في امريكا قبل الحرب العالمية الثانية . وكان الخبراء الاكاديميون عادة ، ينجزون اعمالهم حول الاسلام في زوايا هادئة في المدارس اللاهوتية ، لافي ظل اضواء الاستشراق المتوهجة ، ولا على صفحات الصحف والمجلات الرائجة . ومنذ حوالي قرن من الزمان قامت علاقة تعايش مذهلة ، وان تكن هادئة ، بين عائلات المبشرين الامريكيين الذين ارسلوا الى الدول الاسلامية وبين ملاكات الشؤون الخارجية وشركات النفط . ويظهر ذلك دوريا على شكل تعليقات عدائية توجه ضد « مستعربي » وزارة الخارجية وشركات النفط الذين يعتقد انهم يكنون ودا خاصا للاسلام يتسم بعداء مر للسامية . ونجد ، من ناحية اخرى ، ان جميع البارزين المرموقين في الولايات المتحدة ، بوصفهم خبراء اكاديميين نوي شأن في ميدان الاسلام ، هم غرباء المولد : فهناك اللبناني فيليب حتي في جامعة برينستون ، والنمساوي غوستاف فون غرونباوم في جامعتي شيكاغو وكولومبيا ، والانجليزي هـ.أ.ن. جب في جامعة هارفرد ، والألماني جوزيف شخت في كولومبيا . وليس بين هؤلاء الرجال من يتمتع بمثل المكانة الثقافية التي يحتلها جاك بيرك في فرنسة او البرت حوراني في انجلترة .

ولكن بعض هذه الشخصيات قد اختفت من المسرح الأمريكي ، مثل جب وفون غرونباوم وشخت . ولا يوجد اليوم من يضارعهم في اتساع الثقافة او يقارب ، ولو قليلا ، شمول اطلاعهم وبقته . فالخبراء الاكاديميون المختصون في الاسلام ، حاليا ، اميل الى معرفة مدارس التشريع في بغداد في القرن العاشر ، او انماط الحياة المدينية المغربية في القرن التاسع عشر ؛ وهم ينصرفون انصرافا كليا (او شبه كلي) عن معرفة ودراسة الحضارة الاسلامية الشاملة ـ ادبا وتشريعا وسياسة وتاريخا وعلم اجتماع ، الى ما هنالك . غير ان هذا لم يمنع الخبراء من ان يصدروا ، بين الاونة والاخرى ، تعميمات حول العقل الاسلامي وحدوده او الولع الشيعي بالاستشهاد . وقد اقتصرت مثل هذه التصريحات على الصحف الرائجة المتداولة او وسائل الاعلام التي التمست منهم هذه الآراء ، في المقام الأول . والامر الاهم والاكثر دلالة هو ان المناسبات التي تدور فيها مناقشات عامة حول الاسلام ، سواء بين الخبراء او غير الخبراء ، توفرها ، دائما (تقريبا) ، الازمات السياسية . فمن النادر جدا ان يطالع المرء مقالات قيمة عن الحضارة الاسلامية في مجلة النيويورك ريفيو اوف بوكس او هاربرز*. ولم يبد ان الاسلام اهل للتعليق العام الا حين كان الاستقرار في العربية السعودية او في ايران موضع شك وتساؤل وقلق .

لنعتبر اذن ان الاسلام قد دخل الى وعي معظم الامريكيين ـ بما في ذلك المثقفون الاكاديميون والمثقفون عامة الذين يعرفون القدر الكثير عن اوروبة وامريكا اللاتينية ـ بسبب الربط بينه وبين القضايا المهمة اعلاميا ، كالنفط ، او ايران وافغانستان ، او الارهاب ـ اساسا ان لم يكن قطعا . ومع حلول منتصف سنة ١٩٧٩ اصبح كل ذلك يدعى الثورة الاسلامية ، او هلال الازمات ، او قوس عدم الاستقرار ، او عودة الاسلام . ومن اشد الامثلة دلالة على ذلك مجموعة العمل الخاصة بالشرق الاوسط التابعة لمجلس الاطلسي (التي ضمت برنت سكوكروفت ، وجورج بول ، وريتشارد هلمز ، ولينان لمنيتزر ، وولتر ليفي ، ويوجين روستو ، وكيرميت روزفلت ، وجوزيف سيسكو ، وغيرهم) : اذ حين نشرت هذه المجموعة تقريرها في خريف سنة ١٩٧٩ جعلت عنوانه « النفط والاضطراب : الخيارات الغربية في الشرق الاوسط » . وعندما خصصت مجلة التايم ملفها الرئيسي لموضوع

---

* Harper's ; NewYork Review of Books.

الاسلام ، في ١٦ نيسان/ ابريل ١٩٧٩ ، زين الغلاف باحدى لوحات جيروم : لوحة تصور مؤذنا ملتحيا يعتلي مئذنة ويدعو المؤمنين بهدوء للصلاة . وهي لوحة نموذجية تمثل بهاء وزهو ومبالغات الفن الاستشراقي في القرن التاسع عشر افضل تمثيل . ومع ذلك ، فمن المفارقات التاريخية . ان هذا المنظر الهادىء قد رصع بديباجة لا علاقة له بها اطلاقا ، هي : « الاحياء النضالي » . ولا توجد طريقة اخرى افضل من ذلك ترمز الى الفرق بين نظرة اوروبا ونظرة امريكا الى الاسلام . لقد تم تحويل لوحة تزيينية عادية ، تنتج روتينيا في اوروبا كأحد جوانب الثقافة العامة ، بكلمتين اثنتين الى حواز او هوس امريكي عام .

انا ابالغ بكل تأكيد ؟ الم يكن الموضوع الرئيسي في مجلة **التايم** مجرد قطعة من الابتذال والتبسيط اعدت لتلائم مزاجا يفترض انه يميل الى الاثارة وكل ما هو مثير ؟ وهل ينطوي الموضوع **فعلا** على ما هو اكثر جدية ؟ ومنذ متى تحتل وسائل الاعلام منزلة مرموقة في القضايا الجوهرية الاساسية او السياسية او الحضارية ؟ بالاضافة الى ذلك ، **أليس** الواقع حقا هو ان الاسلام قد القى بنفسه فجأة في انتباه العالم ؟ وماذا حل بالخبراء المختصين في الاسلام ، ولماذا تم اغفال مساهماتهم كلية او اغراقها في « اسلام » تناقشه وتميعه وسائل الاعلام ؟

لابد من ايراد بعض الايضاحات القليلة البسيطة قبل اي امر اخر . فكما سبق ان اشرت ، لم يتمتع اي خبير امريكي في شؤون العالم الاسلامي بجمهور كبير من القراء اطلاقا . اضف الى ذلك انه لم تقم اية محاولة لوضع مؤلف عام حول الاسلام وطرحه علنا ومباشرة امام جمهور القراء المثقفين ، باستثناء كتاب المرحوم المارشال هودجسون ، « **مغامرة الاسلام** » ، ويقع في ثلاثة اجزاء نشرت بعد وفاته سنة ١٩٧٥*. كان الخبراء ، تارة ، على درجة عالية من التخصص يخاطبون في مؤلفاتهم خبراء متخصصين من امثالهم فقط ؛ وتارة اخرى ، لم تكن اعمالهم ذات مستوى فكري متميز يتيح لها الوصول الى ذلك النوع من القراء الذين اجتنبتهم المؤلفات حول اوروبا الغربية او اليابان او الهند . ولهذه الامور جميعا تأثيران متعارضان . ذلك انه ، كما اشرت آنفا ، وعلى خلاف ما هو قائم في فرنسة وبريطانيا ، لايمكن ان نسمي « مستشرقا » ذي مكانة وشأو خارج نطاق الاستشراق ، (وتجدر المقارنة مع بيرك او روبنسون في فرنسة) . الا انه من الصحيح ايضا ان دراسة الاسلام لاتشجع تشجيعا حقا في الجامعات الامريكية ولا تلقى تأييدا وقبولا في الثقافة العامة بفضل شخصيات مرموقة قد يؤدي ما تتمتع به من مكانة وشهرة ومزايا خاصة الى جعل تجاربها وخبراتها في الاسلام مهمة في حد ذاتها . هل من نظير امريكي لربيكا وست ، وفريا ستارك ، وت.أ.لورنس ، وولفرد ثسيغر ، وجيرترود بل ، وب.هـ. نيوباي ، وجوناثان رابان ــ وهو احدثهم عهدا ؟ انك لتجد ، في افضل الاحوال ، نظراء هؤلاء في جماعة المخابرات المركزية السابقين (CIA) مثل مايلز كوبلاند او كرميت روزفلت ، وقلما تجد كتابا او مفكرين يتمتعون باي امتياز ثقافي .

والسبب الثاني لهذا الغياب الخطير الحاد للآراء الخبيرة في الاسلام يكمن في الحيز الهامشي الذي يشغله الخبراء بالنسبة لما بدا انه يحدث في عالم الاسلام حين تصدر « الاعلام » واصبح « الخبر الرئيسي » في منتصف السبعينات . ولا ريب ان الحقائق المرة التي لابد من الاعتراف بها هي ان الدول الخليجية المنتجة للنفط ظهرت فجأة بالغة القوة والنفوذ ؛ وان هناك حربا اهلية في لبنان وحشية بشكل غير مألوف ، يبدو كأنها لن تنتهي ؛ وقد تورطت الحبشة والصومال في حرب طويلة المدى ؛ واصبحت المشكلة الكردية مشكلة اولى ، فجأة على غير توقع ، ثم خمدت بعد سنة ١٩٧٥ ، بصورة مفاجئة غير

---

* Marshall Hodgson, «The Venture of Islam».

متوقعة ايضا ؛ واطاحت ايران بنظامها الملكي في ظل ثورة « اسلامية » عارمة مذهلة تماما ؛ ووقعت افغانستان في قبضة انقلاب ماركسي سنة ١٩٧٨ ، ثم غزتها القوات السوفياتية اواخر سنة ١٩٧٩ ؛ وانجرت الجزائر والمغرب الى نزاع طويل المدى حول قضية الصحراء الجنوبية ؛ واعدم رئيس باكستاني وتسلمت الحكم دكتاتورية عسكرية جديدة . وثمة احداث اخرى وقعت ، احدثها عهدا الحرب القائمة بين العراق وايران ؛ ولكن لنكتف بما ذكرنا . واعتقد ان من العدل ان نقول ، بشكل عام ، ان كتابات الخبراء المختصين في الاسلام في الغرب لم تكن لتلقي الضوء الا على قلة قليلة من هذه الاحداث ؛ ذلك ان الخبراء لم يتنبأوا بها اطلاقا ولا اعدوا قراءهم لتوقعها ابدا . ليس ذلك فحسب ، وانما قدموا كما هائلا من الكتابات التي ظهرت ، عند مقارنتها بما كان يحدث فعلا ، كأنها تدور حول مكان في هذا العالم يبعد عنا بعدا خرافيا ، مكان لا علاقة له البتة بهذا الخضم المضطرب الخطير الذي برز فجأة في وسائل الاعلام امام عيون القارىء .

تلك هي المسألة المركزية . ولا يكاد يبدأ بحثها بحثا موضوعيا رصينا ، حتى الان . ومن هنا يتوجب علينا ان نتقدم بحذر . ان الخبراء الاكاديميين المشتغلين في ميدان الاسلام قبل القرن السابع عشر يعملون ، اساسا ، في حقل اثري . اضف الى ذلك ان عملهم ، مثله مثل عمل غيرهم من المتخصصين في ميادين اخرى ، هو عمل متخصص منغلق الى حد بعيد . فلا هم رغبوا ولا حاولوا محاولة مسؤولة، أن يشغلوا انفسهم بالمترتبات الحديثة للتاريخ الاسلامي . وقد كان مثل ذلك العمل الذي انشغلوا به مرتبطا الى حد لا بأس به بأفكار مسبقة عن اسلام « تقليدي كلاسيكي » ، أو بانماط مفترضة لاتتغير للحياة الاسلامية ، او بمسائل لغوية فقهية عفا عليها الزمن . ومهما يكن الامر ، لم تكن ثمة وسيلة للافادة من اعمالهم ومؤلفاتهم في فهم العالم الاسلامي الحديث الذي كان يتطور ، كائنة ما كانت النوايا والاهداف وبغض النظر عن اي اجزائه هو موضع الاهتمام ، في اتجاهات مغايرة جدا لتلك الاتجاهات التي سلكها في ظل العهود الاسلامية الاولى (اي من القرن السابع الى القرن التاسع) .

اما الخبراء المشتغلون في حقل الاسلام الحديث ــ او بتحديد ادق في ميادين المجتمع والشعوب والمؤسسات في العالم الاسلامي منذ القرن الثامن عشر ــ فقد عملوا في نطاق اطار للبحث محدد متفق عليه تشكل وفق رؤيا وافكار لم تقم حتما في العالم الاسلامي . ولا يمكن ان نبالغ في توكيد قيمة هذه الحقيقة بكل تعقيداتها وتنوعها . ونحن لاننكر الواقع القائم وهو ان الباحث العامل في اكسفورد او باريس او بوسطن يكتب ويبحث اساسا ــ وان لم يكن كلية ــ طبقا لمقاييس وتقاليد ومواصفات وتوقعات صاغها نظراؤه ، ولم يصغها المسلمون موضوع البحث والدراسة . وربما كانت هذه حقيقة بدهية ، لكننا نرى ضرورة توكيدها . ان الدراسات الاسلامية في الميدان الاكاديمي تنتمي ، بشكل عام ، الى « برامج المناطق »*(اوروبا الغربية ، والاتحاد السوفياتي ، وجنوب شرقي آسيا ، الخ ...) . ومن هنا نجدها تنتسب الى آلية وضع وتصميم السياسة القومية . ولا خيار للباحث الفرد في هذا الامر . فلو كان احد الباحثين في جامعة برنستون يقوم بدراسة المذاهب الدينية الأفغانية المعاصرة ، فمن الواضح (خاصة في مثل هذه الايام) انه قد يكون لمثل هذه الدراسة « مترتبات سياسية » . وسواء شاء الباحث ام ابى فانه (او انها) سيجد نفسه مسوقا داخل شبكة تجمع الحكومة والشركات والمؤسسات السياسية . وسيتأثر التمويل تبعا لذلك ، كما سيؤثر ذلك ايضا في نوع الناس الذين يقابلهم الباحث ؛ وبصورة عامة ، ستعرض عليه مكافآت معينة واصناف محددة من النشاط المتعاون المشترك . وشاء الباحث أم أبى ، سيتم تحويله ، رغم انفه ، الى « خبير منطقة » .

---

* «Area Programs».

اما بالنسبة للباحثين الذين ترتبط ميادينهم ارتباطا مباشرا بالقضايا السياسية (ونقصد ، اساسا ، الباحثين في حقل العلوم السياسية في الدرجة الاولى ، ولكننا نشمل ايضا المشتغلين في ميادين التاريخ الحديث والاقتصاد وعلم الاجتماع والانتروبولوجيا) ، فقد كان عليهم معالجة مسائل شائكة بالغة الحساسية ، ان لم نقل بالغة الخطورة . كيف يمكن ، مثلا ، ان يكيف الباحث وضعه بوصفه باحثا ليتواءم مع المطالب التي تشترط الحكومات عليه تنفيذها ؟ وتمثل ايران افضل نموذج لايضاح ما ذكرنا . فابان حكم الشاه توفرت ، للباحثين المختصين في الشؤون الايرانية ، اعتمادات مالية قدمتها مؤسسة بهلوي ، بالاضافة ، طبعا ، الى ما قدمته المؤسسات الامريكية . وكانت هذه الاعتمادات توزع على الدراسات التي تعتمد الواقع الراهن نقطة انطلاقها (وهو ، في هذه الحالة ، النظام البهلوي المرتبط بالولايات المتحدة عسكريا واقتصاديا) . وقد اصبحت هذه الدراسات ، بشكل ما ، نموذجا يحتذيه كل من يدرس هذا البلد . وفي مرحلة متأخرة من الازمة ذكرت دراسة صادرة عن اللجنة النيابية الدائمة المختصة برجال الاستخبارات ان تقديرات الولايات المتحدة للنظام قد تأثرت بالسياسة الراهنة « لابطريقة مباشرة اي عبر منع واخفاء الاخبار غير المرغوب فيها بشكل واع مقصود ؛ وانما بشكل غير مباشر .. (إذ) لم يطرح صانعو السياسة السؤال ان كان نظام الشاه الاستبدادي سيدوم الى الابد ؛ وكانت السياسة تبنى على تلك الفرضية » . وقد انتج ذلك بدوره حفنة ضئيلة فقط من الدراسات الجادة التي تقوم نظام الشاه وتحدد مصادر المعارضة الشعبية له . ويتفرد باحث واحد ، فيما اعلم ، هو حامد الجار من جامعة بيركلي ، في انه قدر القوة السياسية المعاصرة للمشاعر الدينية الايرانية حق قدرها . ووحده حامد الجار ذهب الى حد التنبؤ باحتمال ان يطيح آية الله الخميني بالنظام . وقد تحرر عدد آخر من الباحثين من اعتماد الوضع الراهن منطلقا لدراساتهم ــ نذكر منهم ريتشارد كوتام وإيرفاند ابراهميان ــ ولكنهم يشكلون طائفة قليلة جدا . (ومن العدل ان نذكر ان باحثين اوروبيين في اليسار ، وهم طبعا اقل لهفة ورجاء لاستمرار الشاه ونظامه ، لم يحالفهم النجاح ايضا في تحديد المصادر الدينية للمعارضة الايرانية) .

ولو تركنا ايران جانبا ، لوجدنا العديد من الاخفاقات الفكرية المهمة في اماكن اخرى . وقد نجمت جميعا من الاعتماد غير المدقق على ما املاه مزيج من السياسة الحكومية والشعارات المبتذلة . ويزودنا الوضع اللبناني والوضع الفلسطيني بما يغني بحثنا في هذا المجال . فقد اعتبر لبنان ، على مدى سنوات عديدة ، نموذجا لما يمكن ان تكون عليه حضارة تعددية او مركبة . ولكن النماذج التي اعتمدت في دراسة لبنان كانت على درجة عالية من التجسيم والجمود بحيث لم تتح المجال لاي استشفاف لعنف وشراسة الحرب الاهلية (التي امتدت من سنة ١٩٧٥ حتى سنة ١٩٨٠ على اقل تقدير) . ويبدو ان العيون الخبيرة قد تسمرت نظراتها بشدة بالغة ــ فيما مضى ــ في صور محددة لـ « الاستقرار » اللبناني : فكانت موضوعات الدراسة هي الزعامات التقليدية ، والنخبة ، والاحزاب ، والشخصية الوطنية ، والتحديث الناجح .

ونلاحظ انه ، حتى حين وصف النظام اللبناني بانه محفوف بالمخاطر والمجازفات او حين تم تحليل « تمدنه » الناقص غير المرضي ، قام ذلك على اساس فرضية واحدة لاتتغير تقول ان المشاكل اللبنانية ، اجمالا ، يمكن ضبطها وهي ابعد عن ان تكون مدمرة تدميرا جذريا . وقد اعتبر لبنان « مستقرا » ، في الستينات ، لان الوضع « بين العرب » كان مستقرا ، حسبما يخبرنا احد الخبراء الذي اقام جدله على ان لبنان يبقى آمنا مستقرا ما بقيت تلك المعادلة سليمة محافظا عليها . ولم يدر في البال ابدا ، ولا حتى على سبيل الافتراض ، احتمال قيام استقرار بين العرب ولا استقرار لبناني . ويكمن السبب الرئيسي لذلك ــ كما هي الحال في معظم موضوعات هذا الحقل الذي يسيطر عليه

الاجماع ـ في ان الحكمة التقليدية قد اسبغت على لبنان « تعددية » ابدية واستمرارية متجانسة منسجمة ، بغض النظر عن الانقسامات الداخلية اللبنانية وعدم تعلق اوضاع البلاد العربية المجاورة بالوضع اللبناني . ومن هنا وجب ان تنشأ كل مشكلة في لبنان من الاوضاع العربية المحيطة به ، لا من اسرائيل او الولايات المتحدة مثلا ، ولكل منهما خطط دقيقة محددة بالنسبة للبنان ، وان لم يتم تحليلها ابدا . ثم كان هناك ايضا لبنان الذي جسد اسطورة التحديث . وحين نقرأ اليوم مؤلفا كلاسيكيا يتضمن هذا النوع من حكمة النعامة ، يذهلنا مدى الصفاء الذي عرضت وقوبلت به هذه الخرافة حتى سنة ١٩٧٣ ، حين كانت الحرب قد ابتدات في الواقع . ويأتينا الخبر بان لبنان قد يجتاز تغييرات ثورية ، ولكن ذلك احتمال « بعيد » . اما الاحتمال الاقرب الى التحقيق فهو « تحديث مستقبلي يفيد منه الشعب عامة [وذلك تعبير لطيف ، ولكنه للأسف ساخر ، عن ما اصبح اشد الحروب الاهلية ضراوة في تاريخ العرب الحديث] ، في نطاق النظام السياسي الشائد » . او ، كما قال احد الانتروبولوجيين المرموقين ، « تبقى قطعة الفسيفساء الدقيقة اللطيفة ، اللبنانية صحيحة سليمة . ومن المؤكد ... ان لبنان كان وما يزال الاكثر فعالية وكفاءة في احتواء انقساماته الاساسية العميقة » .

ونتيجة لذلك اخفق الخبراء ، في لبنان كما في غيره من البلدان ، في ان يدركوا ان معظم الامور الجوهرية المهمة في الدول التي كانت مستعمرة لايمكن حصرها في عنوان او قاعدة واحدة هي « الاستقرار » . ففي لبنان كان من شأن تلك القوى المتحركة بشدة ، وهي القوى نفسها التي اغفل الخبراء دراستها وبحثها اغفالا تاما او هم اساؤوا تقديرها باطراد ـ الاقتلاع الاجتماعي ، والتغيرات الديموغرافية ، والولاءات الطائفية ، والتيارات الايديولوجية ـ ان تمزق البلاد شر تمزيق شرس .

وعلى المنوال نفسه تقضي الحكمة التقليدية التي ما تزال قائمة منذ سنوات عديدة ان يعتبر الفلسطينيون مجرد لاجئين تمكن اعادة توطينهم ، لا ان يعتبروا قوة سياسية لها تأثيرات لايستهان بها في اي تقدير دقيق مقبول للشرق الادنى . وقد اصبح الفلسطينيون ، منذ منتصف السبعينات ، مشكلة رئيسية من المشاكل التي تعترف بها سياسة الولايات المتحدة ، ومع ذلك فانهم لم يلقوا ، حتى الان ، الاهتمام الفكري والبحثي الذي يتلاءم واهميتهم . ونجد ، عوضا عن ذلك ، ان موقف الولايات المتحدة المستمر هو معالجتهم كملحقات لسياسة الولايات المتحدة نحو مصر واسرائيل ، واهمالهم ، بكل معنى الكلمة ، في الحريق اللبناني . وليس هناك اي بحث يعتد به او رأي خبير له وزن يخالف هذه السياسة ويعارضها ؛ ويرجح ان يكون مردود ذلك مأساويا على المصالح القومية الامريكية ، وخاصة منذ الحرب الايرانية ـ العراقية التي فاجأت مرة جديدة ، على ما يبدو ، جماعة المخابرات وبينت خطأ حساباتهم وتقويمهم للقدرات العسكرية لكل من هذين البلدين .

اضف الى التطابق بين هيئة البحث المستكينة التي تعمل بتؤدة ورتابة والاهتمامات الحكومية غير المركزة ، حقيقة مؤسفة اخرى هي ان عددا هائلا من الخبراء الذين يكتبون عن العالم الاسلامي لا يتقنون اللغات المطلوبة ، ولذلك كان لابد ان يعتمدوا في استقاء معلوماتهم ، على الصحف او على غيرهم من الكتاب الغربيين . وكان هذا الاعتماد ، المعزز من جديد ، على التصور الرسمي او التقليدي للامور بمثابة شرك علقت فيه وسائل الاعلام ، في حالة عرض مجمل الاوضاع في ايران ما قبل الثورة . كان هناك اتجاه الى الدراسة واعادة الدراسة والى التركيز المتشدد على امور بعينها : النخبة ، وبرامج التحديث ، ودور الجيش ، والزعماء البارزون جدا ، والاستراتيجية الجغرافية ـ السياسية (من منظور الولايات المتحدة) ، والانتهاكات الشيوعية . وربما بدت هذه الامور مدعاة لاهتمام امريكا

كأمة ، ولكن الواقع هو ان الثورة في ايران قد اكتسحتها جميعا ، بكل معنى الكلمة ، في غضون ايام معدودة . فانهار العرش الامبراطوري بكامله ؛ وتفتت الجيش الذي انفقت عليه بلايين الدولارات ؛ اما ما يسمى النخبة فاما اختفوا او التحقوا بالوضع الجديد ، وفي كلتا الحالتين تبين انهم لايقررون السلوك السياسي الايراني ، كما كان يؤكد في السابق . ورغم ان جيمس بيل من جامعة تكساس يستحق الاطراء لانه تنبأ بما قد تقود اليه « أزمة ١٩٧٨ » ، تجده يوصي صانعي السياسة في الولايات المتحدة ان يشجعوا « الشاه ... على انتهاج سياسة الانفتاح » . وبكلمة اخرى ، حتى صوت هذا الخبير المنشق ، كما افترض ، ظل ملتزما بصيانة النظام الذي كان يواجه واقعيا ، في اللحظة نفسها التي تكلم الخبير اثناءها ، معارضة الملايين من شعبه الذين قاموا ، حرفيا ، باحدى كبريات الانتفاضات العارمة في التاريخ الحديث .

غير ان بيل بين عددا من الامور الهامة حول جهل الولايات المتحدة العام بايران . لقد اصاب بقوله ان التغطية الاعلامية سطحية ، وان الاعلام الرسمي موجه وفق رغبة آل بهلوي ، وان الولايات المتحدة لم تبذل اي جهد لمعرفة البلاد معرفة عميقة او للاتصال بالمعارضة . ولكن بيل توقف هنا ولم يتبع كلامه بالقول ان هذه الاخفاقات كانت وما تزال من اعراض الموقف العام الذي تتخذه الولايات المتحدة ازاء العالم الاسلامي وإزاء ، كما سنتبين فيما بعد ، معظم دول العالم الثالث . ومن المؤكد ان عدم قيام بيل بالربط بين اقواله المحقة حول ايران وبقية العالم الاسلامي ، هو بعض من هذا الموقف ايضا . فلم تقم ، اولا ، اية مواجهة جدية مسؤولة تمحص المسألة المنهجية المركزية ، ونقصد بها : ما قيمة الحديث عن « الاسلام » وعن الانبعاث الاسلامي ؟ (ان كان لذلك اي قيمة) ؟ وما هي ، ثانيا ، العلاقة بين السياسة الحكومية والبحث العلمي ، او كيف يجب ان تكون هذه العلاقة ؟ هل يفترض ان يكون الخبير فوق السياسة او ان يكون ملحقا سياسيا للحكومات ؟ لقد قال بيل ووليام بيمان (والاخير من جامعة براون) ، في مناسبات مختلفة ، ان احد الاسباب الرئيسية للازمة الامريكية الايرانية سنة ١٩٧٩ يكمن في اخفاق الولايات المتحدة في استشارة الخبراء الاكاديميين الذين انفقت مبالغ طائلة على تعليمهم بهدف واضح هو معرفة العالم الاسلامي . ولكن بيل وبيمان فاتهما ان يدركا احتمال ان يكون سعي الباحثين للعب دور المستشارين في حين يطلقون على أنفسهم لقب باحثين ، هو السبب الذي يجعلهم يبدون شخصيات غامضة ، وغير موثوقة لذلك ، أمام الحكومة ومجتمع المفكرين على حد سواء .

وبالاضافة الى ذلك ، هل من وسيلة يعتمدها المفكر الحر المستقل (وهذا ما يجب ان يكونه الباحث الاكاديمي اولا واخيرا) للمحافظة على استقلاله (استقلالها) في حين يعمل مباشرة في خدمة الدولة ؟ وما هي العلاقة بين الولاء السياسي الصريح والرؤيا الثاقبة ؟ الا يستثني احدهما الاخر ، ام ان ذلك يصح في بعض الحالات فقط ؟ وما السبب في ان كادر الباحثين الاسلاميين بأكمله (مع الاعتراف بصغر حجمه) لم يحظ في هذا البلد بجمهور اكبر ؟ ولماذا وقع ذلك في حين بدت الولايات المتحدة في امس الحاجة للتعلم والمعرفة ؟ من المؤكد ان هذه الاسئلة جميعا لاتمكن الاجابة عنها الا في نطاق الاطار الواقعي ، السياسي الى حد بعيد ، الذي يحكم ، تاريخيا ، العلاقات بين الغرب والعالم الاسلامي . فلنلق نظرة الى هذا الاطار ونكشف الدور الذي يمكن للخبير ان يلعبه في نطاقه .

لم استطع ابدا ان اكشف اية حقبة في التاريخ الاوروبي او الامريكي منذ العصور الوسطى ، تم ابانها بحث الاسلام او التفكير فيه ، بصورة عامة ، خارج إطار ابتدعته العواطف والاهواء والانحياز والمصالح السياسية . وقد لا يبدو هذا الاكتشاف مذهلا ، ولكنه يتضمن كل ما يتصل بجميع الفروع العلمية والبحثية التي عرفت ، منذ مطلع القرن التاسع عشر ، اما مجتمعة باسم فرع الاستشراق ، او

التي حاولت ان تدرس الشرق دراسة منهجية . ولن يعارض احد قولنا ان اوائل المعلقين على الاسلام مثل بطرس المحترم وبارثلمي دهربلوت كانا ، فيما قالاه ، من المسيحيين المتحمسين المندفعين . ولكن لم يتم فحص وتمحيص الفرضية القائلة ان اوروبا والغرب اذ دخلا في العصر العلمي الحديث وتحررا من الجهل والخرافات ، فلا بد ان يكون ذلك قد انعكس على الاستشراق . اليس صحيحا ان سلفستر دي ساسي ، وادوارد لين ، وارنست رينان ، وهاملتون جب ، ولوي ماسينيون ، كانوا جميعا باحثين ضليعين موضـوعيين ؟ واليس صحيحا ايضا ، بناء على مختلف انواع التقدم الذي بلغناه ، في القرن العشرين ، في علم الاجتماع ، والانتروبولوجيا ، والالسنية ، والتاريخ ، ان الباحثين الامريكيين الذين يعلمون موضوع الشرق الاوسط وموضوع الاسلام في جامعات على غرار برنستون وهارفرد وشيكاغو ، يتسمون ، فيما يعملون ، بالموضوعية والتنزه عن الهوى وعدم الانحياز ؟ والجواب هو كلا . لا لأن الاستشراق اشد انحيازا من غيره من العلوم الانسانية والاجتماعية ؛ بل انه مؤدلج ملوث بادران العالم ، كما هي حال غيره من العلوم . ولكن الفارق الرئيسي يكمن في ان الباحثين المستشرقين مالوا الى استخدام ما توفره له مكانتهم ، بوصفهم خبراء ، من نفوذ لانكار ــ ولتغطية في بعض الاحيان ــ مشاعرهم العميقة المتأصلة نحو الاسلام باعتماد لغة نافذة تستهدف ان تشهد لهم بـ « الموضوعية » و« عدم الانحياز العلمي » .

(نقل النص الى العربية : سميرة خوري)